العرب
السبت 2020/02/22
السنة 42 العدد 11625

تعالوا لنجرب فوائد اللاقراءة!

«كيف تتحدث عن كتاب لم تقرأه؟».. دليل فرنسي جريء ومشوق

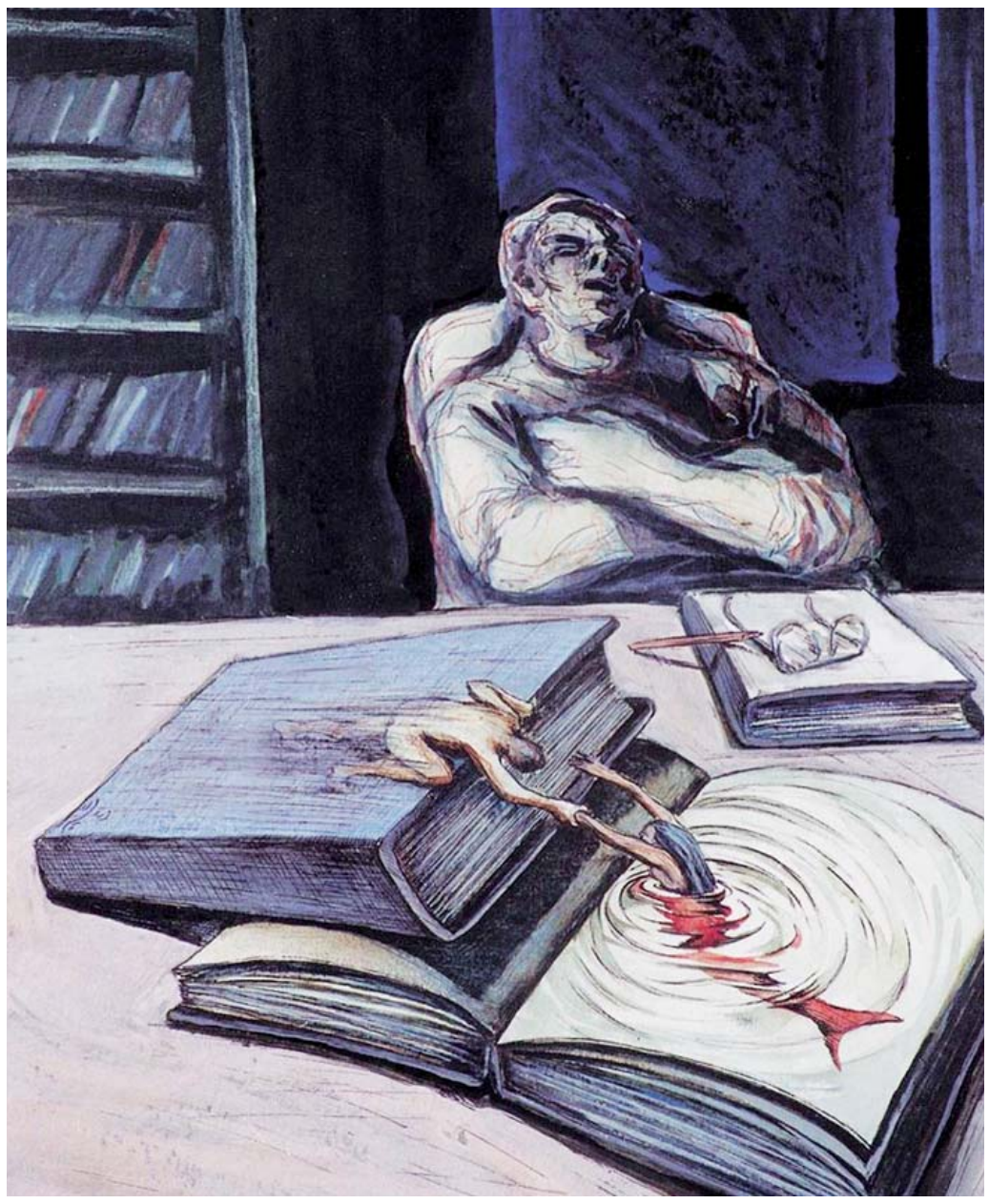

كثيرة هي الكتابات التي تحدثت عن القراءة، وشروطها، وطرائقها. وهذا الاهتمام لم يتوقف عند كتاب الغرب على نحو الكاتب الشهير ألبرتو مانغويل الذي يعد من أفضل مَن كتبوا في تاريخ القراءة. وهناك مَن قدم إرشادات أخذت عناوين "أسس تنمية عادة القراءة" كما فعلت الباحثة الأميركية دونالين ملير. وفي عالمنا العربي تدخل كتابات عبدالفتاح كيليطو وعبدالسلام بنعالي تحت هذا النوع من الكتب التي تبقى إشكالية.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

تتوالى الكتابات التي هي أشبه بمرشد للقارئ، وإن كان هناك مَن تحفظوا، على هذه الوظيفة، مثل فيرجينيا وولف، التي رأت أن على القارئ "ألا يتبع أي نصيحة"، وأن يتبع استنتاجاته الخاصة.

مع كل هذا الفيض من الكتابات عن القراءة وتاريخها وعوالمها، إلا أن أحدا لم يتوقف عند المعنى المضاد للقراءة أي "اللاقراءة"، أو حتى معوقات القراءة كالنسيان الذي يعتبر جزءا من القراءة، وليس آفة القراءة. وهو الاشتغال الذي توقف عنده الناقد والمحلل النفسي الفرنسي، بيير بيار، فيتوقف عند المعنى المضاد للقراءة في كتابه "كيف نتحدث عن كتب لم تقرأها؟" الصادر عن دار "كلمات للنشر والتوزيع – الكويت" بترجمة غسان لطفي.

القراءة واللاقراءة

في حديث سابق للكاتب ثروت أباظة خلال جلسة جمعته بالدكتور طه حسين عن الناقد محمد مندور، قال أباظة "إن مندور كان ينقد الكتب دون قراءتها، كان يلقي نظرة سريعة على فهارسها أو عناوين موضوعاتها، ثم يكتب عنها"، وقد أرجع هذا إلى شدة حب مندور للمال. في الحقيقة لا نعرف مدى صدق ما ذكر على لسان أباظة، لكن السؤال كيف لإنسان أن يتحدثَ (أو يكتب)عن كتب لم يقرأها؟ وهو الأمر الذي يوليه بيار عنايته في هذا الكتاب.

> ليس ضروريا أن نمسك كتابا لنتكلم عنه بالتفصيل، فيكفي أن نسمع ونقرأ ما يقوله عنه غيرنا

وبناء على هذا يضع حدا فاصلا بين القراءة واللاقراءة، وإن كان يقر بأن الحد الفاصل بينهما غير واضح تماما. فيقول من خبرته إنه بإمكان الإنسان أن يخوض نقاشا محتدما عن كتاب لم يقرأه، وإن كان يرى أن هذا يحدث في حالة لو أن المحاور لم يقرأ الكتاب هو أيضا.

يتساءل "هل يستوجب عليّ عند الكتابة عن كتاب ما أن أكون قرأته، وفي أضعف الاحتمالات أكون مسكته بيدي؟ النظرة العجلى سترفض وتقول لا، بالطبع، كيف؟ لكنّ ثمة رأيا قائما على استقصاء أفكار وحيوات كُتاب مارسوا أفعال الكتابة والتحدث عن الكُتب عبر طرائق غير التي نعرفها. وهو ما فعله بيار، الذي قدم لنا قائمة جديدة عن طرائق وكيفيات القراءة". وذكر أن هناك أنواعا مختلفة من الكتب مثل: كتب الشاشات، أو التعويض، أو الافتراضية، أي تلك التي لا تشبه الكتب الواقعية في شيء. والمقصود بها هي تلك التي يود أن يعرفها القارئ أو يظن ما يعرفه عن الكتاب، وبالتالي فكل الأحاديث المتبادلة عنه، والخطابات التي ننسجها حول الكتاب هي في جزء كبير منها خطابات عن خطابات أخرى عن الكتب.

يعنون بيير بيار أحد فصول الكتاب هكذا "في كيفيات اللاقراءة وطرائقها"، وهو عنوان يثير شهية القراء، وكأننا أمام بوصلة توجيه سلبية للقراءة، برفضها وعدم قراءتها على عكس ما ذكره غوركي بأن "على الأرض ما يستحق القراءة" أو حتى كافكا الذي اعتبر الكتب مثل "الفأس التي تكسر البحر المتجمد بداخلنا".

إلا أن الكتاب هنا يحرضنا على عدم القراءة. هل فعلا نحتاج إلى خارطة طريق نسلكها كي لا نقرأ؟ مع الأسف المؤلف يعدد هذه الطرائق، ويذكر منها "ألا نفتح أي كتاب. وهذا الامتناع هو شأن كل قارئ، حتّى ولو كان مواظبا على القراءة، فهم أيضا مُجبرون على التحدث عن كُتُب لم يقرأوها، وهو ما يقودنا إلى اللاقَارئ الكلي، الذي لا يفتح كتابا قط، دون أن يمنعه هذا من أن يعرف الكتب وأن يتحدث عنها"، ويضرب مثالا برجل المكتبة في كتاب "رجل بلا صفات" لروبرت موزيل، فهذا المكتبي الذي استعان به بطل الرواية بحثا عن "فكرة منقذة" من أجل استجلاء "قوة الخصم" بألا يدخل إلى بطون الكتب. وهذا الحذر ليس استهزاء أو لأنه عدو للكتب، بل على العكس لأنه يحبها، وهذا الحب يدفعه إلى أن يبقى بحذر على تخومها، فإن اهتمامه الزائد بكتاب يجره إلى إهمال الكتب الأخرى.

«أضرار» القراءة

بقدر أن المؤلف لا يعطي لمسألة أن يعترف مثقف بأنه لم يقرأ هذا الكتاب أو ذلك، يكفي أن يعلم شيئا عن مضمونه كي يحدد موقعه بين الكتب. فالتمييز بين مضمون الكتب، وموقعه هو تمييز حاسم ومحوري، وهو الذي يمكن الذين لا تخيفهم الثقافة من أن يتحدثوا عن أي موضوع دون عناء يذكر. إلا أنه في الوقت ذاته يعول على ما أسماه "المكتبة الجماعية" فهي المهمة حقا لأن الإحاطة بها والتمكن منها، هما المحك الحقيقي في الكلام على الكتب. فيكفي أي مثقف أن يطلع على عنوان الكتاب، أو أن يلقي نظرة على غلافه لكي تتداعى في ذهنه سلسلة من الصور والانطباعات التي سرعان ما تتحول إلى رأي أولي.

هذا الأمر يصل بنا إلى اللاقراءة، ويرى بيار أنه ليس ناتجا عن انعدام القراءة، بل هو فعل بأتم معنى الكلمة، يتمثل في أن نختار موقعنا في خضم الكتب الهائلة المحيطة بنا، لكي لا نغرق فيها. والفارق بين انعدام القراءة واللاقراءة، أن في الحالة الأولى الشخص الذي لا يقرأ لا يهتم بالكتاب أي المضمون والموقع معا. أما النوع الثاني فالشخص يمتنع عن القراءة، يفعل ذلك سعيا منه، ليمسك بجوهر الكتاب، وعلاقته بالكُتُب الأخرى. وهي ذات الفكرة التي تتردد عند بول فاليري حيث يقول صراحة "إن القارئ الحق المهتم بالتفكير بالأدب، لا يعنيه هذا الكتاب أو ذاك بل يعنيه مجموع كل الكتب الأخرى".

النوع الآخر من القراء، هم مَن يتصفحون الكتب فقط، وحسب قول بول فاليري، الذي يعد واحدا ممن حذروا من خطر القراءة، وأيضا دعا إلى فصل الكاتب عن نصوصه؛ يكفي أن نتصفح كتابا لكي نكتب عنه مقالا كاملا. فمع أنه من النوع الذي لا يقرأ كثيرا على عكس أناتول فرانس الذي "كان يقرأ أكثر مما يجب"، فهو حسب الوصف "القارئ الذي لا يتوقف"، إلا أن هذا لا يمنعه من تكوين آراء دقيقة عن كُتاب يجهلهم، بل ويفيض في الحديث عنهم، على نحو ما فعل مع مارسيل بروست بعد وفاته، بكتابة مقالة ضافية، أكدت عبقريته عندما برهن على صدق نظريته في عدم القراءة، فامتناعه عن قراءة بروست هو أفضل إطراء يمكن أن يطريه به.

> الكاتب يفاضل بين فعلي القراءة واللاقراءة وإن كان يقر بأن الحد الفاصل بينهما غير واضح تماما

النوع الثالث من القراء هم من ينتمون إلى "الكتب التي سمعنا بها" فكما يقول أمبرتو إيكو ليس ضروريا أن نُمسك كتابا بيدنا لنتكلم عنه بالتفصيل، فيكفي أن نسمع ونقرأ ما يقوله عنه غيرنا من القراء. وهناك أيضا الكُتب التي نسيناها، وهي نماذج من كتب قرأناها إلا أننا نسينا موضوعها، بل نسينا أننا قرأناه، ويتساءل بيار هل هذه الكتب تبقى ضمن قائمة الكتب التي قرأناها؟ يقر أولا أنه لا يوجد قارئ في مأمن من عملية النسيان، بما في ذلك مونتين الذي يرتبط اسمه بالثقافة الكلاسيكية والمكتبات، فهو على حد تعبير فاليري "قارئ نسِي" وقد يرجع هذا إلى سبب فيزيقي حيث نقص الذاكرة. وإن كان هناك من يعتقد أن مسألة النسيان طبيعية، فالكتاب مجرد حامل مؤقت لحكمة، ما إن يؤدي وظيفته حتى يختفي بعد أن يؤدي رسالته.

وإن كانت القراءة عند مونتين ليست مرتبطة بضعف الذاكرة فحسب، بل مرتبطة أيضا بالخوف من الجنون، ومع أنها عامل إثراء أثناء حصولها، فهي تتسبب في الوقت نفسه بضياع الشخصية، من حيث إنها لا تكف عن تحويلنا إلى ذوات عاجزة عن التوافق مع نفسها. وعلى النقيض تُمارس الكتب التي لا نقرأها دورا مهما في أنها تساعدنا في حماية صورتنا، خشية أن تتهدد أمام ذواتنا وأيضا أمام الآخرين، فيأتي الجواب عن هذه الكتب (وهو ما يدفعنا بألا نخجل) كحيل دفاعية للحفاظ على هذه الصورة. فالكتب تزودنا بالعناصر التي تنقص شخصيتنا. وبذلك تكون الكتب فرصة سانحة لمن ينتهزها؛ لاكتشاف الذات، كما تفعل السيرة الذاتية. كما أن اللغة تجد في عبورها الكتاب، وسيلة لكي تتحدث عما يتوارى عادة فينا.

العجيب أن أوسكار وايلد في رده على استبيان بشأن "أفضل مئة كتاب يمكن أن ننصح بقراءتها"، توقف عند قسم سماه الكتب التي "نُثني الناس عن قراءتها"، واعتبر أن من سينتخب أسوأ مئة كتاب، سيُسدي لجيل الشباب خدمة جليلة. والمستخلص من فكرة وايلد أن للقراءة مثلما لها فوائد أو "مباهج" كما عدها أورهان باموق، لها أيضا أضرارها على نحو ما اعترف أورهان باموق في مقالة "كيف تخلصتُ من بعض كتبي" إلى درجة أنه شعرَ بالخجل من أنه أولاها بعض الأهمية في وقت من الأوقات.

اللاقراءة فعل ثقافي (لوحة للفنان علي رضا درويش)

الكِتاب وعلل تداوله

حسن الوزاني
كاتب مغربي

يُصدر الكاتب، إذا كان محظوظا، عمله لدى دار نشر كبرى بمدينة في المركز، دون أن يمنح ذلك بالضرورة الرواج للعمل الذي يظل في أحسن الحالات رهين رفوف مكتبات مدينة أو مدينتين. قد يكتفي الكاتب بطبع كتابه بمدينة قصية. وفي هذه الحالة، يكون النسيان هو مآل الكتاب. قد يختار الكاتب نشر كتابه علَى نفقته، وبذلك يتخلى الكاتب عن وضعه الاعتباري ليصير محترفا لترويج عمله. قد يفضل الكاتب البحثَ عن رواج أفضل عبر نشر عمله خارج حدود بلده، غير أن ضريبة ذلك تكمن، في الكثير من الأحيان، في حرمان قراء بلده من تصفح كتابه.

قد تختلف الحالات، لكن ما يجمعها هو مشكل التوزيع والتداول الذي يقتل، في نهاية المطاف، أي عمل مهما علت قيمته. إذ لا وجود لأي عمل من دون قارئه.

وإذا كان هذا الوضع يهم، بدرجات متفاوتة، الكثير من الدول العربية، بما فيها التي راكمت تجربة هامة على مستوى النشر والتوزيع، يظل المغرب النموذج الذي يختزل خصوصيات وامتدادات هذا الوضع. إذ أن بنية التوزيع بالبلد تمثل المجالَ الأضعفَ في حلقة صناعة الكتاب.

ولعل هذا الوضع يرتبط بتأخر ظهور بنيات التوزيع وبطبيعة شبكتها وبمحدودية احترافية جانب منها وأيضا بمستوى تغطيتها المحدود للتراب الوطني. وارتباطا بذلك، سينتظر المغرب حلول القرن العشرين ليرى ظهور وحداته الخاصة بالتوزيع. ويبدو مفارقا أن يعجز البلد، بعد أكثر من قرن، عن مراكمة أكثر من أربع مؤسسات للتوزيع. وهو الأمر الذي لا يساير، في جميع الأحوال، الدينامية التي يعرفها قطاع النشر بالبلد والتزايد المستمر لإصداراته.

كما نجد من المفارق أن ثلاث مؤسسات من ضمن الأربع هي فروع لمؤسسات فرنسية، من ضمنها مؤسسة بريستاليس. وهي المؤسسة التي راكمت طيلة تاريخها الطويل الكثير من الفضائح، ومن ذلك تورطها، في ثمانينات القرن الماضي، في تهريب ورق الصحف، بشكل سري، إلى كوبا، لطباعة جريدة غرانا، لسان الحزب الشيوعي الكوبي، ثُم فضيحة اكتشاف أكثر من خمسة آلاف قطعة سلاح داخل أحد مخازنها. ولا تتوقف فضائح الشركة هنا، إذ أعلنت قبل سنتين عن قرب إفلاسها وهي التي كانت تحجم عن التصريح بأرقام معاملاتها. وكانت تلك طريقتها لابتزاز الدولة الفرنسية التي وجدت نفسها مجبرة على دعم الشركة تجنبا لبوار الصحافة الفرنسية. وذلك اعتبارا لكون بريستاليس تضمن توزيع حوالي ثمانين في المئة من جرائد ومجلات البلد.

يحدث ذلك، في اللحظة التي يُحجم الرأسمال الوطني المغربي عن دخول مغامرة الاستثمار في مجال التوزيع، تاركا المكان فارغا لديمومة "الحماية الثقافية" الفرنسية، ولرهن توزيع الكتاب المغربي بمزاج أجنبي، قد يكون آخر همه هو تيسير تداول الإنتاج الثقافي المغربي، خصوصا المكتوب منه باللغة العربية أو بالأمازيغية.

والنتيجة أن هذا الوضع، سيفتح الباب أم سيادة التوزيع غير المهني وغير المهيكل، والذي يعتمد، بشكل خاص، على الإمكانيات الذاتية، سواء من طرف الكُتاب أنفسهم أو عددٍ من دور النشر.

كما أن هذا الوضع تزداد حدته، خصوصا مع الحضور الكبير للأعمال الصادرة على نفقة مؤلفيها، والتي تشغل أكثر من ثلث إنتاج البلد. إذ يتحول الكاتب، الذي من المفروض أن تنتهي وظيفته عند صدور الكتاب، إلى مُدَبر لمبيعاته ومرجوعاته، بشكل يمس وضعه الاعتباري.

في اللحظة التي لا يستطيع الكتاب المغربي الخروج من هذه الدوامة، يستمر الكتاب العربي والأجنبي في اقتحام السوق المغربية. وهو الأمر الذي تؤكده أرقام مكتب الصرف المغربي. إذ أن قيمة مجموع واردات المغرب، في مجال الكتاب، تضاعف بعشرين مرة مجمل قيمة صادراته.

وقد لا يبدو مفاجئا أن تشكل كل من فرنسا وإسبانيا المصدر الأساس لواردات المغرب على مستوى الكتاب. إذ أن من عادة البلدان المستعمِرة أن تُبقي على كل الخيوط، بما فيها الثقافية، التي تربطها بالبلدان المستعمَرة سابقا.

في مقابل ذلك، تُقاسم لبنان البلدين السابقين كعكعةَ سوق الكتاب المغربي في جانبه العربي. ولا يبدو ذلك غريبا. إذ أن إصدارات لبنان تشكل المصدر الرئيس لمجمل الدول العربية، بما فيها مصر، المعروفة بتقاليدها العريقة على مستوى صناعة الكتاب.

ويعود جانب من هذا الحضور إلى المكانة التي تشغلها لبنان على مستوى صناعة الكتاب العربي، بفضل تراكم تجربتها التي تعود إلى أربعة قرون، وأيضا لما يُشكلُه إنتاجها من تنافسية على مستوى الأثمان، وللرواج الذي يعرفه الكتاب الديني الذي يشكل جانبا هاما من هذا الإنتاج.

> الكتاب المغربي لا يحظى ببنيات على مستوى التوزيع يمكن أن تفتح أمامه الأسواق العربية والدولية

وخلافا لذلك، لا يحظى الكتاب المغربي ببنيات على مستوى التوزيع يمكن أن تفتح أمامه الأسواق العربية والدولية. ولعله بذلك يضيع أكثر من سوق مفترَضة. ومن ذلك أفريقيا على سبيل المثال. إذ تنحصر أرقام صادرات المغرب إلى مجمل بلدان القارة في حوالي العشرة ملايين دولار. وإن كان تحقيق هذا الرقم يتم بفضل لجوء عدد من الدول الأفريقية إلى المطابع المغربية، لطبع كتبها المدرسية، أو الكتب الدينية، ومنها أساسا القرآن. وذلك في اللحظة التي لا تتجاوز حصة الكتاب الثقافي الصفرَ في المئة من هذه الصادرات.

ولعل هذا التباين الكبير بين واردات المغرب وصادراته على مستوى الكتاب يكشف عن حقيقتين مفارقتين. تهم الأولى استمرارَ جانب من المركزية الثقافية، التي تجعل من بلدان كلبنان أو مصر أو فرنسا مصنعةً للكتاب ومن المغرب قارئا له. وذلك بالرغم من كل التحولات التي عرفتها هذه العلاقة، ومن ذلك الحضور الخاص للأعمال المغربية على مستوى المشرق أو الغرب.

أما الحقيقة الثانية فترتبط بدلالات الحضور الكبير للكتاب العربي والأجنبي المستورد. وبمعنى أدق، إن استمرار هذا الحضور يَفترض وجودَ سوق للقراءة بالمغرب لا ينتبه إليها الخطاب الذي يتحدث، من موقع الانطباع، عن وجود أزمة قراءة بالبلد. وهو حضور قد يعني أيضا، وهذا هو الأمر الأخطر، وجودَ قراء لا يبحثون بالضرورة عمّا ينتجه الكتاب المغاربة!

توزيع الكتب المغربية يعاني من التقصير